[redacted]

في عام ١٩٤٧ ذهبت مارغريت بولينغر[1] لتستحم في نهر "الإيزار" الذي ينبع عند جبال "الألب" في التيرول مخترقا ميونيخ ... وهناك أبصرت رجلا تضرب بشرته إلى اللون البرونزي وتشي قسمات محياه بانحداره من أصول آسيوية. أما الرجل فكان "حسن قصايب"؛ لاجئ سوفييتي في الثلاثين من العمر راغب في استهلال صفحة جديدة من صفحات حياته. وإذ تقاسم الاثنان نظرة خفر وحياء، أدركت مارغريت "أنه الرجل" ... ذلك الرجل الذي لم يفارقها إلا عند موته الذي وافاه قبل عام واحد فصلهما عن الاحتفال باليوبيل الذهبي لزواجهما.

والكتاب إهداء إلى "الزوجين" ... وإلى لاجئين مسلمين آخرين خاضوا غمار معارك غامضة حيث واجه كثيرون منهم خيارات أخلاقية عسيرة لينتهى بهم المطاف آلاف الأميال بعيدا عن موطنهم الأم، وليحيوا فى بلدان استغلقت على الأفهام ... وكان أملهم أن تفضى أعمالهم إلى تغيير وجه التاريخ ... ولقد كان لهم ما رموا إليه وإن تقولب فى مسارات لم يخالوها البتة.

تلك نغمة تاريخية متكررة على نحو موصول مفادها الخلوص إلى عواقب لم تكن قط فى الحسبان. بيد أننى - والحال كذلك - قد استشعرت غصة فى الحلق وصدمة كأنها البرق ... إذ قدر لى التعرف إلى أولئك البشر - حميميا - من خلال مكاتباتهم وتصاويرهم، بل لقد حالفنى حسن الطالع فى أحايين فالتقيت أناسا منهم كمارغريت كساچيب وجهاً لوجه ... طاعنين ينتمون إلى

حقبة من الزمان غابرة، ظاعنين أمضوا أعمارا حزينة يحيون فى سرية وغموض ... أناساً نادراً ما باحوا بمكنون صدورهم عما قدمت أيديهم لاستشعارهم خجلا من تعاون مع أنظمة غريبة مريبة وخيانتهم مودة خلان وأحباء مثلاً... وكذا لاستشعارهم التقيد بضرورة الكتمان وعدم الإفصاح ... ذلك القيد المفروض صراحة أو المفهوم ضمنيا فى العمليات المغطاة المتوسدة بالسرية المتدثرة بالغموض. هذا، وقد تزيا سوادهم بمسوح قد نافت الحقيقة ... فتارة يكون الإهاب إهابَ عالم أو باحث، وتارة يكون إهاب مناضل لإعلاء راية الحرية ... وحينا يكون مسوح ناشط دينى، وحينا يكون مسوح رجل أعمال. وهنا يلاحقنى سؤال ... ماذا يبقى للمرء من حياة جردت من وضوح وعلانية ومضت فى غيابات السرية ومسارب الغموض؟!

وتأتى الإجابة، فى حالة شخوص الكتاب، بأن ما تبقى كثير. فرغما عن

أن كثيرا منهم قد قضى نحبه، وما تزال حيواتهم يكتنفها غموض لم يمط عنها لثام، إلا أن أفعالهم لها أصداء واسعة اليوم حين تواجهنا حالات مماثلة وأمور مشابهة. فكما الضياء ينبعث من كوكب قصي، تنير سيرتهم ذواتنا وجنبات حياتنا.

برلين ... نيسان (أبريل) ٢٠٠٩